مُحَمَّد شَفِيق غُرْبال
سِـيرةٌ وتحيَّة
(١٨٩٤-١٩٦١م)

أ.د. عبد المنعم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الفيوم

obeikan.com

obeikan.com

كان عالمًا فذًّا رزقه الله من حب العلم، والانصراف إلى البحث والتحصيل، وعشق المعرفة، وتقدير جهود العلماء، وسعة الأفق وسماحة الخلق ما جعله بين أفراد جيله ملء السمع والبصر والفؤاد. وكان من القلائل الذين أسسوا لأنفسهم مدرسة خاصة في البحث العلمي تحمل طابعه وتسير على منهاجه، وكان المعلم الأول الذي لقن شباب الجيل الماضي دروسهم الأولى في التاريخ القومي والوطني فكان اهتمامه بتاريخ مصر الحديث الباب الرئيسي الذي نفذ منه إلى تاريخ العرب.

لقد كانت له فلسفة في التاريخ، وكان محبًّا للحقيقة، حرًّا في تصويرها وكان رفيقًا في نقده، مُرَحِّبًا به إذا وُجِّه إليه، وكان مُتواضعًا، سخيًّا بعلمه يجود به على من يقصده.

قال عنه أستاذه «أرنولد توينبي» : «إن الطلاب الموهوبين لا يتعلمون من أساتذتهم، فهو لا يتذكر أنه علَّم شفيق غربال شيئًا، بل إنه يتذكر أنه تعلم من غربال شيئًا كثيرًا ذلك أنه في الدراسات العليا يشترك كل من الأستاذ والطالب في تعليم كل منهما الآخر».

ولد محمد شفيق غربال في حي غربال الممتد على ضفاف ترعة المحمودية في الإسكندرية في عام ١٨٩٤، ونشأ وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارسها، ثم اختار الالتحاق بمدرسة المعلمين الخديوية العليا بالقاهرة حيث وجد فيها- كما يذكر- المعهد الذي يصله بالدراسات الإنسانية، وتخرج فيها عام١٩١٥ ثم أوفدته الحكومة المصرية في بعثة دراسية لدراسة التاريخ الحديث بجامعة«ليفربول»بإنجلترا إبان الحرب العالمية الأولى.

ومع فداحة الأخطار التي كان يتعرض لها العالم في خلال هذه الفترة، وعلى الرغم من مصاعب السفر خلال تلك الآونة، فإن غربال لم يتردد في الذهاب إلى إنجلترا ليواصل دراسته للتاريخ هناك. وقد استطاع أن يثبت مقدرته فحصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف في عام ١٩١٩، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية لمدة ثلاث سنوات أوفد بعدها مرة أخرى إلى إنجلترا للحصول على درجة الماجستير بجامعة لندن ثم بمعهد البحوث التاريخية التابع لهذه الجامعة. وخلال ذلك التقى بالمؤرخ الإنجليزي الشهير «أرنولد

توينبي» الذي كان يشرف على بحوث الدراسات العليا هناك ويذكر «توينبي»أنه منذ لقائه الأول به وجد فيه طالبًا موهوبًا وأنه تنبأ بأنه سيكون في مستقبل حياته باحثًا متميزًا، كما تنبأ له بمسلكه الأخلاقي الذي تميز به، وبكونه موضوعي التفكير، مستقلًا في الرأي ذا حزم وعزم فيما يتصل بالعمل الذي يتناوله[١].

ومن المعروف أن «توينبي»أشرف على رسالة غربال للماجستير التي حصل عليها في عام١٩٢٤م وكانت بعنوان:

The beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mohamed Ali.

وبعد أن عاد غربال إلى مصر في عام١٩٢٥ عُيِّن مدرسًا للتاريخ الحديث بمدرسة المعلمين العليا، وهناك بدأ في تدريس تاريخ الحضارة الإسلامية والكتابة في هذا المجال فكتب فصلًا بالإنجليزية عنوانه : «الآراء والحركات في التاريخ الإسلامي»

Ideas and Movements in Islamic History.

ثم نقل غربال أستاذًا مساعدًا للتاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية في عام١٩٢٩ ثم ما لبث أن رُقِّي بها أُستاذًا للتاريخ الحديث عام١٩٣٦ فكان بذلك أول مصري يتولى هذا المنصب بالجامعة خلفًا للمؤرخ الإنجليزي «جرانت». ومن هنا بدأ غربال يشق طريقًا طويلًا في خدمة الدراسات التاريخية المصرية، وفي نقل الإشراف على هذه الدراسات من يد القصر الملكي والمؤرخين الأجانب إلى يد الجامعة فبدأ في تكوين المدرسة التاريخية المصرية، وتمصير الدراسات الخاصة بالتاريخ المصري، وخاصة بعد إنشاء الدراسات العليا للماجستير والدكتوراه بالجامعة، وإشرافه وتوجيهه للبحوث التاريخية.

وقد تمكَّن غربال بفضل مقدرته العلمية، ودقّة ملاحظته، وقوة تأثيره على طلابه، أن تكون له الرِّيادة الفكرية للمدرسة التاريخية فأقبل عليه تلاميذه بشغف، وأخذ يمنحهم من

(١) من كلمة الأستاذ أرنولد توينبي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة أثناء تأبين غربال.

علمه وفكره ما يُنير لهم السبيل دون أن يضن على أحد منهم بما يعلمه أو يصُد عن بابه طالب علم. فدفع ذلك تلاميذه إلى السَّعي للحاق به والسمو إلى قرب قمته عن طريق الحرص على الإجادة وتوخي الدقة[١].

ولم تقتصر جهود غربال في الجامعة على الناحية العلمية بل تعدَّتها إلى نواحي النشاط الاجتماعي حين صار وكيلًا للاتحاد العام لطلاب الجامعة المصرية[٢] وبذلك كان لغربال فضل عظيم في توجيه أجيال متعاقبة من تلاميذه الذين أخلصوا له الإجلال والتقدير، وامتد فضله عن طريقهم إلى العديد من أبناء هذه الأمة[٣].

أما عن الرسائل العلمية التي أشرف عليها غربال فهي متعددة، وقد ارتبط معظمها بالعصر العثماني وعصر محمد علي. ويرجع السبب في ذلك إلى إهمال المؤرخين دراسة هذه الفترة في ذلك الوقت؛ ولهذا دعا غربال طلابه إلى الاهتمام بدراسة التاريخ العثماني باعتباره مدخلا لدراسة التاريخ المصري الحديث، ووجههم كذلك إلى الاهتمام بدراسة تاريخ القرن التاسع عشر بصفة عامة وعصر محمد علي بصفة خاصة نظرًا لأن نبض الحياة المصرية قد اشتد في ذلك العصر، وكانت التطورات السريعة والمتلاحقة التي وقعت بمصر خلاله قد أحدثت فيها ما يشبه الثورة في كافة مناحي الحياة. نتيجة لذلك خرج على يد غربال العديد من الدراسات الأكاديمية في هذه الموضوعات نذكر منها : الدراستين اللتين قدمهما محمد رفعت رمضان ونال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه وهما «ثورة علي بك الكبير» و «مصر والدولة العثمانية دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٥٠-١٨٦٣» ، والدراسة التي قدَّمها حسن عثمان للماجستير تحت عنوان «فخر الدين بن معن الثاني أمير لبنان» ، والدراستين اللتين أعدهما أحمد الحته للماجستير والدكتوراه «الفلاح المصري في عهد محمد علي» و «تطور الزراعة المصرية في

(١) المجلة التاريخية المصرية:المجلد التاسع عشر١٩٧٢ مقال للدكتور أحمد عزت عبد الكريم تحت عنوان محمد شفيق غربال أستاذ جيل وصاحب مدرسة ص ٢٦ .

(٢) مذكرة مُقَدَّمة من كلية الآداب جامعة القاهرة بترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية عام١٩٦٠.

(٣) من كلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد في مجمع اللغة العربية خلال حفل تأبين الأستاذ غربال.

النصف الأول من القرن التاسع عشر»، والدراستين اللتين قدمهما أحمد عزت عبد الكريم ونال بهما الماجستير والدكتوراه وهما «تاريخ التعليم في عصر محمد علي» و«تاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل حكم توفيق»، والدراسة التي أعدها أبو الفتوح رضوان للماجستير وعنوانها «تاريخ مطبعة بولاق»، والدراسة التي قدمها محمد محمد توفيق للماجستير تحت عنوان «مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر»، والدراسة التي أعدها فائق جبره للماجستير تحت عنوان «ضرائب الأطيان المصرية في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها أمين عفيفي للدكتوراه بعنوان «تجارة مصر في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها عياد دوس للماجستير بعنوان «الفتح المصري للسودان في عهد محمد علي»، والدراسة التي قدمها عبد العزيز الشناوي للماجستير تحت عنوان «السخرة في حفر قناة السويس».

ولغربال مؤلفات ليست بالكثيرة ولا بالضخمة، ولكن ما كتبه يقترن دائما باسمه خصوصًا وأنه كان يرى من الحقائق ما لا يراه غيره، إذا كتب تاريخًا صاغه في لفظٍ أنيقٍ فيه فطانة، وبُعْد نظر، وحسن إدراك مع دعابة لطيفة تجعل من يقرأ له يحس أنه ليس مع مؤرخ أو فيلسوف و إنما مع فقيه من فقهاء التاريخ[١].

ومن أبرز مؤلفات غربال رسالته للماجستير «بداية المسألة المصرية وظهور محمد علي»[٢] والتي تعد حدثًا علميًّا استرعى أنظار الأساتذة والباحثين، خاصة لأنها اتَّسمت باستقراء الأحداث، والفحص العلمي، والمقارنات، والناحية التحليلية، وكثرة المصادر والأسانيد كما اتسمت بالحياد في تقويم الأشخاص والبُعْد عن التحامل والعواطف.

وقد استطاع غربال في هذه الدراسة تناول التطورات السياسية في مصر منذ الحملة الفرنسية حتى وصول محمد علي إلى الباشوية، وأثبت أن المسألة المصرية كانت جزءًا مهمًا من المسألة الشرقية، وأنه لا يمكن فهم هذه المسألة إلا إذا ربطنا بينها وبين ما كان يجري في الدولة

(١) حسين مؤنس: التاريخ والمؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص ٢٠٤.

(٢) كُتبت هذه الدراسة بالإنجليزية ولم تترجم بعد.

العثمانية وأوروبا، وهي الطريقة التي سار عليها أستاذه «توينبي» في مؤلفاته، وهي أنه لا يمكن للباحث أن يدرك كنه حقيقة تاريخ أمه من الأمم إذا هو قصر بحثه على تاريخ هذه الأمة، واكتفى بتتبع الحوادث التي وقعت فيها وحدها خصوصًا وأن حوادث العالم متشابكة فلا تقع حادثة في بلد من البلدان إلا امتدت آثارها إلى البلدان الأخرى بدرجات متفاوته قد تكون قوية أحيانًا، وغير مؤثرة في أحيان أخرى.

وتظل هذه الفترة بالذات محور اهتمام غربال ففي عام ١٩٣٢ كتب بحثًا بعنوان «الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنه١٨٠١» اهتم فيه بدراسة شخصيتين هما المعلم يعقوب حنا أو الجنرال المصري يعقوب والفارس الإيطالي لاسكاريس.

والمعروف أن الجنرال يعقوب دخل في خدمة الفرنسيين، وقد أشار إليه الجبرتي أكثر من مرة في كتابيه «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» و«عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ذاكرًا مساعدته لقادة الحملة، وقيامه بتأليف فرقه من الأقباط وإنشاء قلعة لها في الأزبكية.

أما الفارس لاسكاريس فهو نبيل إيطالي، دخل في سلك فرسان القديس يوحنا الذين يتخذون من مالطة مقرًّا لهم، وحضر مع بونابرت إلى مصر، وتقلد بعض المناصب الإدارية، وكان يرى أن مصر جديرة بالاستقلال عن الدولة العثمانية بحكم موقعها وتاريخها ومواردها.

وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر تبعها الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس للسعي لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر، ولكن يعقوب وافته المنية في الطريق، وكان نصيب مسعاه الإهمال.

ولا جدال في أن الأستاذ غربال قد نجح في تمحيص كل ما كُتب في هذا الموضوع[1]، وبذل ،

(١) أثارت شخصية الجنرال أو المعلم يعقوب الكثير من الجدل الثقافي أو التاريخي حينًا أو الطائفي حينًا آخر ؛ خاصة مع ممالأة يعقوب للاحتلال الفرنسي ومساعدته له ، ولهذا لم يكن رجال الدين المسيحي وقتها - لا سيما البطريرك - راضين عن تصرفاته وأحواله . وعلى هذا فقد اتَّهمه كثير من الدارسين بالخيانة ، في حين صوَّره البعض بأنه كان بطلًا يسعى إلى استقلال مصر !! . انظر أصداء هذا الجدل في كتابات : أحمد الصاوي ، وجلال كشك ، ورجاء النقاش ، ولويس عوض ، ويعقوب روفيلة ، وغيرهم . (المحرِّر) .

جهدًا في ترجمة الوثائق التي كتبها لاسكاريس وبذلك قدم بما كتبه خدمة للتاريخ المصري، وألقى شعاعًا على أول رؤية حقيقية لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن نشر غربال دراسة تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ـ رسالة حسين أفندي الروزنامجي» وتشتمل هذه الدراسة على تحقيق مخطوط بعنوان «ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين أفندي أحد أفندية الروزنامه في مصر العثمانية» وهو عبارة عن أسئلة موجهة إلى «المسيو ستيف» مدير مالية مصر - خلال الحملة الفرنسية - إلى حسين أفندي حول أحوال الفلاحة في مصر ونظام الالتزام والضرائب، وبعض النواحي المالية، وإجابات حسين أفندي عليها[١].

وقد مهدت دراسة هذا المخطوط الطريق لكل من تصدى لتاريخ الدولة العثمانية بالدراسة، وأكدت أن شفيق غربال كان محققًا من الطراز الأول خاصة وأنه أضاف إلى المخطوط من الشروح والتعليقات ما أوضح فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري، وإيمانه بدور مصر الحضاري.

ويستمر غربال في دراسته عن هذه الفترة فيخرج كتابًا بعنوان «محمد علي الكبير»[٢]، وفيه وصف المناخ الذي كانت تعيشه مصر قبيل عصر محمد علي، ونجاح محمد علي في إقامة سلطة مركزية تجمع كل القوى المتصارعة في إطار واحد، وقيامه بحركات إصلاحية وعمرانية واسعة في شتى المناحي حتى عادت مصر كما كانت مهدًا للحضارة، كما وصف الصفوة المثقفة التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا لدراسة العلوم الحديثة، وعادت إلى مصر لتطبيق العلم على العمل بأنها ساعدت في النهوض بالزراعة والصناعة وبناء الجيش والأسطول، وأخذت عبقريتها تدب في جسم مصر وروحها كما تدب الخميرة في العجين، وأوضح أن ما قام به محمد علي من إصلاحات فاق ما كان يقوم به الفرنسيون لو امتد حكمهم في مصر، ثم أرجع نجاح محمد علي في إصلاحاته،

(١) مجلة كلية الآداب: المجلد الرابع جـ١ مايو ١٩٣٦ ص ١-٧١.

(٢) نشر ضمن سلسلة أعلام الإسلام في عام ١٩٤٤، وأعادت دار الهلال نشره في أكتوبر ١٩٨٦.

وفشل السلطان العثماني محمود الثاني في الإصلاحات التي قام بها في تركيا إلى أن محمد علي كان يعتمد على ثلاثة أسس وهي القوة والعلم والمال في حين اعتمد السلطان العثماني على القوة العسكرية وحدها.

أما عن مساوئ السخرة والاحتكار وقصر المناصب العليا على الأرستقراطية العثمانية وغيرها فقد بررها غربال بأنه كان لا بد من التضحية بجيل أو جيلين في سبيل بناء حكومة قوية ومعمرة في مصر.

وأما عن مواقف محمد علي من السلطنة العثمانية وأوروبا فقد تمكن غربال بفضل اتساع ثقافته، وتمكنه من أساليب الكتابة التاريخية إلى ربط تاريخ محمد علي بالأوضاع العامة في الدولة العثمانية وأوروبا، وطبيعة المؤامرات الدولية التي أحاطت به، كما رأى أن محمد علي وهو قائد عثماني مسلم كان لا بد له من مساعدة الخليفة العثماني على إصلاح دار الإسلام وعلى الاحتفاظ بها مصونه ضد غزوات أعداء الإسلام وأنه ظَلَّ على إيمانه بهذا الموقف حتى فقد الثقة بالسلطان بعد صلح كوتاهيه في عام ١٨٣٣، وبدأ يفكر في الانفصال عن الدولة العثمانية، وإعلان استقلال ما يسمى «عربستان» أي البلاد العربية عنها، ولكنه كان يتردد في اتخاذ هذه الخطوة خشية ما يترتب عليها من المحاذير.

وعند تحليلنا لما كتبه غربال عن محمد علي نجد أنه تأثر تأثيرًا واضحًا بأستاذه «توينبي» في إيمانه بدور الصفوة المبدعة في مجالات النشاط البشري، وبنظريته عن فكرة التحدي والاستجابة Challenge and Response حين تطرق إلى معالجة العلاقات بين الشرق والغرب. يضاف إلى ذلك أنه دافع عن كل أعمال محمد علي وإنجازاته على حين أن هناك العديد من المآخذ على محمد علي وبعض أعماله التي كان يجب عليه توضيحها لا تبريرها. والى جانب ذلك نجد للأستاذ غربال دراسة قيمة تحت عنوان «تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ــ بحث في العلاقات المصرية البريطانية من الاحتلال إلى عقد معاهدة التحالف ١٨٨٢-١٩٣٦»[١]. وهو

(١) نشرته مكتبه النهضة المصرية في مايو ١٩٥٢ و قبيل ثورة يوليو بشهرين.

كما يرى صاحبه في مقدمته« محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث، والوقائع، والسياسات، والخطط، والبواعث والأغراض والأماني والأحلام والشهوات التي توالت على مصر، والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا ».

ويُلاحظ على هذا الكتاب بصفة عامة أنه بحث علمي مدعم بالوثائق والتحليلات العلمية البعيدة عن التحيز والمعروضة بأسلوب مشوق جذاب.

وفي فصول هذا الكتاب تعرض غربال للمفاوضات المصرية البريطانية بصفة عامة، وبين كيفية نشأتها، وكيف رضي بها الإنجليز والمصريون بوصفها وسيلة لتحقيق الأماني، وصيانة المصالح. وتعرض للأحداث التي سايرت المفاوضات، وقدم وصفًا موجزًا للسياسة العامة للاحتلال تجاه المصريين ثم تطرق إلى العلاقات المصرية البريطانية إبان الحرب العالمية الأولى بصورة مبدعة، ووصف المبررات التي استندت إليها إنجلترا كي تفرض حمايتها على مصر، وموقف الزعماء المصريين من ذلك. كما تعرض المؤلف للتحفظات الأربعة التي صحبت انتهاء الحماية في فبراير١٩٢٢، وتوقف عند عقد معاهدة١٩٣٦.

ومع أن كتاب الأستاذ غربال يعتبر أثرًا فريدًا من نوعه من حيث الموضوع وطريقة عرضه، وتدعيمه بالوثائق، وكثرة التحليلات المدعمة بوجهات النظر المختلفة التي تؤكد فهم غربال الصادق لحقائق التاريخ المصري فإنه مما يؤخذ على هذا الكتاب أن صاحبه لم يتعرض كثيرًا للظروف الدولية العامة ذات التأثير المباشر في العلاقات المصرية البريطانية وربما يكون قد أجَّل كتابة ذلك للجزء الثاني من الكتاب الذي كان يعتزم إصداره،ولكنه لم ير النور فقد توفي دون أن ينتهي من كتابته.

وعلى كل حال فإن لهذه الدراسة مغزى مهمًّا وهى أنها كانت المحاولة الأولى من جانب غربال للكتابة في القضايا المعاصرة، والتعرض للحركة الوطنية المصرية بعد أن كان القرن التاسع عشر وحده يحتل مكان الصدارة من اهتماماته.

وبعد أن قامت ثورة ١٩٥٢ألقى غربال عشرة أحاديث باللغة الإنجليزية في البرنامج الأوروبي

بالإذاعة المصرية في عام ١٩٥٤ [١] عن «تكوين مصر» وفيها تحدث عن محبوبته ذات الأحرف الثلاثة وهي مصر فأوضح أن «مصر هبة المصريين» لا هبة النيل كما قال هيردوت لأن النيل الذي تقع مصر على ضفتيه قد قطع آلاف الأميال قبل أن يصل إلى مصر ومع ذلك فلا توجد غير مصر واحدة على طول مجراه، أقامها المصريون بكدهم وعرقهم، فهم الذين فلحوا الأرض وسقوها وزرعوها، وهم الذين أقاموا السدود والعمران في شتى أرجائها، ولولا جهودهم هذه لتحولت مياه النيل إلى مستنقعات وأماكن خربة تنتشر منها الملاريا والأوبئة ومن هنا فان البشر هم الذين صنعوا مصر، وهؤلاء البشر الذين فعلوا ذلك هم المصريون. كما أثبت غربال في أحاديثه أيضًا أن مصر مهد الحضارة التي تجمعت حولها كل الأحداث، وأن موجات الغزاة التي وفدت إليها لم تستطع أن تفُتَّ في عضدها أو تؤثر في شخصيتها.

ونظرًا لأهمية هذه الأحاديث فقد جمعت في كتاب صدر في القاهرة باللغة الإنجليزية في عام١٩٥٥ ثم ترجم إلى العربية، ونشرته وزارة الثقافة المصرية في عام١٩٥٧، كما ترجمته «كارمن برافو» الباحثة بقسم الدراسات السياسية بكلية الآداب جامعة مدريد إلى الإسبانية[٢].

أما عن آخر ما كتبه غربال فكان بعنوان «منهاج مفصل لدراسة العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ما هي عليه اليوم»، وقد بين فيه العوامل التاريخية التي أثَّرَت في بناء الأمة العربية وحدَّدَها فيما يلي:

١- الأثر العثماني في الأمة العربية

٢- الغزو الأوروبي وأثره في الأمة العربية

٣- التطور الداخلي للأمة العربية

وشرح كذلك ظروف وقوع العالم العربي تحت الحكم العثماني والظروف التي أدت إلى الغزو الأوروبي للأقطار العربية. والنتيجة التي خرج بها غربال من دراسته لهذا الموضوع

(١) أذيعت هذه الأحاديث بعد ذلك من محطات إنجليزية وأمريكية متعددة.

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد: مدريد، المجلد الرابع عشر ١٩٦٧، ص٧-٤٧.

تتلخص في أن عوامل التدافع والتصادم بين الأمة العربية والقوى الغازية لها انجلت عن ظهور النهضة العربية الحديثة، وإلى جانب ذلك فإن لغربال جهودًا كبيرة في مجال الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبخاصة في مجال التوجيه والمراجعة والإشراف على نقل عدد من أمهات الكتب التاريخية اللازمة لتثقيف الجيل العربي، وإفادة الدارسين والباحثين. كما أن له العديد من البحوث والمقالات التاريخية المنشورة في المجلات العلمية[١]، وفي الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية[٢]، وفي تقديمه لكتب تلاميذه وأصدقائه وفضلاً على ذلك فله عدد كبير من الأحاديث الإذاعية في موضوعات تاريخية متنوعة منه موضوعات في التاريخ الإسلامي، وسلسلة أخرى عنوانها «العالم الإسلامي من المحيط إلى الخليج» لو جمعت في صورة مدونات لكانت تُراثًا ضخمًا من المؤلفات.

وبعد أن تعرضنا لمؤلفات غربال يتضح لنا مدى قدرته، وتمكنه من أصول فن التاريخ، وإدراكه لحقائق تاريخ بلده، يُضاف إلى ذلك أن كتاباته كانت تتحلى بالعمق ويتجلى فيها الموضوعية، وعدم إلقاء الأحكام جزافًا، وأنه وإن كان قد تأثر بمدرسة «توينبي» كثيرًا ؛ فإنه لم يخضع في كثير من الأحيان لفلسفة تاريخية معينة بل كان يأخذ من كل تفسير بقدر طبيعة الدراسة التي يتعرض لها والملابسات التي تحيط بها. وحينما يتعرض لإحدى القضايا الشائكة التي تتعدد الآراء فيها كان في معظم الأحيان لا يفرض على القارئ رأيًا بعينه بل كان يستشهد بآراء من تعرض لهذا الموضوع ليبحث القارئ معه عما هو أقرب من الموضوعية، وأحيانًا كان يبدي رأيه في همس هادئ أبعد ما يكون عن التكلف، وأقرب إلى اللمسات الفكهة الإنسانية المهذبة. وعلى كل حال لم تكن مؤلفات غربال ومصنفاته العلمية وحدها كل ما قدمه بل لعل أهمها تلاميذه الذين تشربوا ثمرات فكره، ونبضات عقله .

---

(١) انظر على سبيل المثال مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية، المجلد الثاني، العدد الأول، مايو، تحت عنوان أمير سوري في إيطاليا ص٧٦-١١١.

(٢) انظر مادة الترك في الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية.

فقد سأله يوما أحد الأجانب عن آخر مؤلفاته، وكان في مجلس العلم من تلاميذه فأشار إليهم قائلا: «هؤلاء هم كتبي».

هـذا عن غربـال وجهوده المتعددة في المجـالات التاريخية. أما عن أنشـطته العلمية الأخرى والمناصـب المتعـددة الـتي تولاها فقد انتخب شـفيق غربـال وكيلًا لكليـة الآداب فعميدًا لها في مايو١٩٣٩ وحتى مارس١٩٤٠.

وفي عام ١٩٤٠ نُقِلَ غربال من الجامعة إلى وزارة المعارف ليبدأ مرحلة جديدة في خدمة التربية والتعليم، وهى خدمة وطنية جليلة، وظل هناك حتى ديسمبر١٩٤٢ يعمل وكيلًا مُساعدًا بالوزارة، ثم عاد إلى منصبه بالجامعة لإدارة دفة المدرسة التاريخية.

وفي ينايـر١٩٤٥ نقـل غربـال إلى وزارة المعـارف مستشـارًا فنيًّا فوكيلًا لهـا إلى جانب تعيينه أسـتاذًا غير متفرغ بكلية الآداب في فبراير١٩٤٩ وأتاح له ذلك الالتقاء بطلابه والاسـتمرار في مدرسـته التاريخية ثم نقل وكيلًا لوزارة الشـئون الاجتماعية لفترة أُعِيد بعدها إلى وزارة التربية والتعليم حيث نهض بنصيب كبير في أعمال لجان المناهج بالوزارة[1].

وخـلال عمـل غربال بـوزارة التربيـة كان له دور بـارز في حركة تمصير المقـررات التاريخية بالمـدارس، كما كانت الكتب الدراسـية التي أسـهم في وضعها بمثابة النـواة التي اهتدى بضوئها الطلاب والكتَّاب من بعده.

وإلى جانب ذلك لمس غربال عن قرب مشكلات المجتمع المصري والحياة المصرية بوجه عام. وقد قدم غربال للدراسـات التاريخية في مصر خدمات جليلة تمثلت في إنشاء «الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية» التي كانت تعتبر وبحق ربيبته القريبة من قلبه. فقد سـعى سـعيًا ملموسًـا من أجل إنشـائها حتى صدر المرسـوم الملكي في عام ١٩٤٥ بإنشـاء الجمعية، وصدر بعده أمر ملكي بتعينه نائبًا لرئيس الجمعية، واسـتمر الحـال على ذلك حتى انتخب لمنصب الرئيس في عام ١٩٥٦

(١) ظل غربال بوزارة التربية إلى أن أحيل إلى التقاعد في عام١٩٥٤ بعد أن بلغ الستين.

وخلال ذلك أشرف شفيق غربال على إنشاء مكتبة الجمعية التي تدين له بالكثير من الفضل، وكانت سياسته في هذه المرحلة ترمي إلى اقتناء كل كتاب طيب يمكن اقتناؤه، ثم عمل بعد ذلك على أن يكون لكل موضوع مراجعه الأساسية فقام بتزويد المكتبة بمجموعات قيمة من الكتب والمراجع التي تعالج الكثير من القضايا التاريخية المهمة ، هذا إلى جانب رئاسته لتحرير مجلة الجمعية السنوية، وإخراجه لمجموعة قيمة من مطبوعاتها. يضاف إلى ذلك أن شفيق غربال كان سبَّاقًا إلى المساهمة في أنشطة الجمعية الثقافية فشارك فيها بمحاضراته التي كانت تتعدد أحيانًا في الموسم الثقافي الواحد[١] .

وإلى جانب ذلك عمل شفيق غربال على بناء مكانة مرموقة للجمعية بين مثيلاتها في العالم، وذلك عن طريق اتصالاته العديدة بالمؤرخين الأجانب وحضور بعض مؤتمراتهم، ودعوة بعضهم لإلقاء محاضرات بالجمعية علاوة على تشجيعه على نشر بعض البحوث بلغات أجنبية في مجلد خاص ، ومن مآثر غربال أيضًا إشرافه على إنشاء متحف الحضارة المصرية في عام١٩٤٩ فقام بتوجيه لجانه المختلفة بآرائه وتحقيقاته .كذلك مثَّل غربال الحكومة المصرية في عدة مؤتمرات تاريخية فقد ترأس وفد مصر إلى الجمعية العمومية لليونسكو في عام١٩٤٨ وانتخب عضوًا بالمجلس التنفيذي لهذه الهيئة عدة سنوات فظل يمثل الشرق الأوسط لدى هذه المنظمة من عام١٩٤٦ إلى عام١٩٥١. يضاف إلى ذلك أن هيئة اليونسكو اختارته في عام١٩٥١ لعضوية لجنة من اثنى عشر مؤرخًا من أبرز مؤرخي العالم ليكونوا مستشارين لها في شئون العالم وهو مشروع المؤلف الضخم الذي تكفلت به اليونسكو[٢] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان غربال عضوا بمجمع اللغة العربية في الفترة بين عام١٩٥٦ وسنه وفاته، كما كان عضوا بالمجمع العلمي المصري والجمعية الجغرافية، والمجلس الأعلى للآثار، ومركز تسجيل الآثار المصرية القديمة، وجمعية الآثار القبطية، ولجنة التاريخ والآثار بالمجلس

(١) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا الجمعية المصرية للدراسات التاريخية دراسة تاريخية لمؤسسة علمية، ص١٤٧-١٥٢.

(٢) المجلة التاريخية المصرية: المجلد الحادي عشر ١٩٦٣.

الأعلى لرعايـة الفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية، ورئيس الشـعبة التاريخيـة للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.

هذا إلى جانب أنه رأس مجلس مديري الموسـوعة العربية الميسرة فيما بين عامي١٩٥٩-١٩٦١ [١].

وعلى الرغـم مـن مشـاغل غربـال في وظائفه الـتي اسـتنفدت الكثير من وقتـه ظلت صلته بالدراسـات التاريخية مسـتمرة، واسـتمرت مدرسـته التاريخية القائمة على حب البحث والتزام المنهج العلمي قائمة.

وبعـد تقاعـده تولى منصب مدير معهد الدراسـات العربيـة العالية بالقاهـرة التابع لجامعة الدول العربية خلفًا للأسـتاذ ساطع الحصري فبعث فيه الحركة والنشاط، ووَّثق علاقته بالهيئات العلميـة والجامعيـة التي لـم تعرف قبل غربال أن هناك معهدًا بهذا الاسـم، كما نهض المعهد في عهده نهضة علمية كبيرة.

يضاف إلى ذلك أن غربال عمل على توجيه طلابه بالمعهد توجيهًا علميًّا فأخذ يشرف على عدد كبير من الرسـائل التاريخية في المعهد تتناول تاريخ الأمة العربية الحديث والمعاصر حتى خرجت على يديـه موضوعات عـن العرب والـترك (١٩٠٨-١٩١٦) و«تاريخ الوحدة العربيـة حتى عام١٩٤٥» و«المسألة المراكشية١٩٠٢-١٩١٢» و«اليمن في عهد الإمام يحيى ١٩١١-١٩٤٨» وغيرها.

وظـل غربال يشـغل منصبه في هذا المعهد بجـدارة وهمة حتى وفاتـه في ١٩ أكتوبر١٩٦١ بعد مـرض قصـير لم يمهلـه إلا أيامًا فذهب إلى جوار ربه، فبكاه أصدقـاؤه وتلاميذه ومقدرو علمه وعارفو فضله [٢].

---

(١) مذكرة الجمعية التاريخية بشأن ترشيح الأستاذ غربال لجائزة الدولة التقديرية١٩٦٠.

(٢) Abdel Rahman Zaki:Mohammed Shafik Ghorbal 1894-1961,Cairo 1962

مما سبق يتضح أن شفيق غربال كان مؤرخًا وعالمًا من الطراز الأول يستقرئ الحضارات كما يستقرئ الوثائق والنصوص وأنه مصري أصيل عمل في تواضع ورحابة أفق على النهوض بالدراسات التاريخية فأرسى قواعدها، ووجهها التوجيه العلمي السليم، كما يتضح أن جهوده لم تقتصر على إنعاش الدراسات التاريخية في مصر بل تعداها إلى المشاركة في الحركة الفكرية بكل جوانبها وأبعادها ومما يحمد له أنه لم يتملق السراي الملكية رغم إعجابه بشخصية محمد علي، فكان بحق المثل الأعلى للأستاذ الجامعي الذي يحق لمصر أن تفخر به. وحسنًا فعلت جامعتا القاهرة وعين شمس عندما أطلقتا اسمه على مدرج في كليتي الآداب بهما.

⊙⊙⊙

obeikan.com